دراسة ظاهرة اللائمة في الأدب الجاهلي على ضوء المنهج السوسيولوجي

عبد القادر قرش
جامعة الجزائر

حين ننظر إلى المناهج النقدية الأدبية نراها قد تنوعت وتميزت وهي تحاول أن تكون علمية وذلك لتحقق ماهية النص الأدبي بكشف العناصر المكونة له ودراستها.

ونحن هنا نريد أن نقدم دراسة نصية على ضوء المنهج السوسيولوجي الذي مرتكزه الفكري في الفلسفة الماركسية بما هي فلسفة مادية تؤكد على العلاقة بين المستوى الثقافي والمستوى الاقتصادي في المجتمع. وانطلاقا من هذا المرتكز يرفض المنهج الاجتماعي الجدلي عزل النص وانغلاقه على نفسه فهو يريد أن يبين نوعية العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع ويرى أن للفكر موقعه الطبقي في المجتمع. وهذا ما يجعل النص الأدبي يحمل رؤية للعالم يتوجه في تحليله للكشف عنها ويصبح من مهمة النقد البحث عن العلاقة بين النص والواقع ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة. فاظهار المقدرة على ممارسة هذا الموقف النقدي على

نص عربي له خصائصه التاريخية والاجتماعية والأدبية تبقى هذه المقدرة عملا شخصيا.

ونحن لا نريد أن نمدح قطعة أو قصيدة أو نذمها بحسب المدى الذي تبلغه مضامينها الاجتماعية أو الأخلاقية في انسجامها مع معتقدات الناقد فلا حاجة لنا بإدانتها لكونها لا تظهر فيها عناصر هذا المنهج أو ذاك وإنما نريد أن نخضع تحليلنا للمنهج الذي نريد.

فالمنهج الاجتماعي يرى بأن العلاقة قائمة بين الفن والمجتمع (متبادلة) فأثناء التحليل لا بد أن نضع العمل الفني في الجو الاجتماعي ويكون النص حصيلة الفترة والعنصر والوسط وأساليب الانتاج، فالأديب يستجيب لمجتمع هو منه جزؤه الناطق، والناقد الاجتماعي يعنى بفهم الوسط الاجتماعي ومدى استجابة الفنان له.

فانفصال الأديب عن المجتمع غير موجود لأنه نشأ في مهاده ودرج في ظروفه السياسية والاجتماعية ويصدر عن مشاعر مشتركة مع مجتمعه يصف واقع الجماعة وواقع النفس ويسبر قلب الانسان ويجول في طبيعة الحياة ونرى أن الأديب يرتبط ارتباطا قويا بأمته ويصارع معها ولا يتخلى عن مسؤوليته إزاء مجتمعه.

وفي ضوء هذه المعلومات حول المنهج الاجتماعي في نقد النص، أو دراسة موضوع اللائمة في الأدب الجاهلي من خلال مجموعة نصوص متشابهة لشعراء مختلفين.

فظاهرة اللوم موجودة في كل المجتمعات، يمارسها شخص أو أشخاص من أجل تعديل سلوك أو أخلاق أو عمل ما؛ وكل له مبرراته وحجة (اللائم والملوم) على

قبول اللوم أو رفضه. وتخضع العملية لتقاليد وثقافة اجتماعية وصراع ملموس. فالشاعر الجاهلي استخدم ظاهرة اللوم في حوار بينه وبين شخصية جردها من نفسه تظهر صفة من صفاته ويجعلها رمزا من الرموز ليظهر قدرته على التعبير وتكون مجالا لمخاطبة الذات.

فالشاعر يجرد من نفسه شخصية المرأة الرافضة للسلوك القانع بأدائه وهو في هذا التجريد يخلق العبارة المناسبة والجو الموافق والعتاب المقبول مستمدا من الحوار الداخلي وسيلته التي يرتكز عليها لايضاح وجهة نظره.

وهذا الحوار قد يكون بسيطا لا يخرج عن نطاق المساجلة الأدبية والتأثير الذاتي وقد يكون طويلا تنبعث منه فلسفة الشاعر.

وقد يظن البعض أن هذا الحوار حوار حقيقي، ولكن يبدو متخيلا ولا أثر للمرأة اللائمة التي تخيلها الشاعر أو الشعراء، ولكن الشاعر يخلق هذا الحوار ليؤكد في نفسه صفة مشهورة.

والشاعر يحرص على أن تكون وسيلته في هذا الحوار اللوم على استخدام الفعل -لام- ومشتقاته ومترادفاته ويحرص على اخفاء الصورة الأولى التي لا يذكرها أبدا ولكن يكتفي بتقديم حجته بعد أن يمهد لذلك عما يشير إلى اللوم ويحرص أن يقع هذا اللوم في الليل بعد أن تبدأ النجوم نحو المغيب وبعد أن يحجب الظلام الرؤية ويطبق الصمت الرهيب حيث تتوثب نفس الشاعر وتستجيب ملكته الفكرية وتطاوعه القريحة.

ويصر الشاعر على أن ظاهرة اللوم لم تكن في محلها مهما كانت الدوافع والتقاليد الاجتماعية ويؤكد استمراره في السلوك الذي يلام عليه غير آبه بما يقال عنه. وسنلاحظ من خلال النصوص أن صورة التجريد أخذت أشكالا متباينة

واتجاهات مختلفة غير أنها تلتقي عند ظاهرة اللوم وتختلف عند الصفة التي يلام عليها الشاعر وهي التي تحمل المرأة على هذا اللوم.

فإذا التفتنا إلى حاتم الطائي نجده يجرّد من نفسه شخصية المرأة اللائمة على إنفاقه وبذله وكرمه وذلك ليؤكد صفة الكرم التي أصبحت حقيقة تميز بها الشاعر وخبرها خبرة واعية واستطاع أن يجعلها فلسفة يدافع عنها وفق منطق معقول ويبذل من أجلها الشيء الكثير.

فهو في تجريده يمسك بخيوط الأسلوب الشعري المحسوس ويستخدم الألفاظ الشعرية الموحية ويوفق بين تسلسل الأفعال بصورة فنية منسقة.

فاللوم واقع بسبب إعطاء المال واهلاكه، وحديث البخل قائم وفلسفة الشاعر في الانفاق تمثل المبرر المعقول وهذه الأفكار تتناثر في أبيات أو قطعة بشكل يوحي بعمق الفكرة الشاعرة.

يقول:

وعاذلة هبت بليل تلومنـــــي ... وقد غـاب عيوق الـثريا فعـــردا(1)

تلوم على إعطائي المال ضلـة ... إذا ضن بالمال البخيل وصـــرّدا

تقول ألا أمسك عليك فإننـــي ... أرى المال عند الممسكين معبّـــدا

ذريني ومالي أن مالك وافـر ... وكل امرئ جار على ما تعـــودا

ذريني لكن مالي لعرضي جنـة ... يقي المال عرضي قبل أن يتبـددا

أريني جوادا مات هزلا لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مات مخلّدا

وإلا فكفي بعض لومك واجعلي ... إلى رأي من تلحين رأيك مسنـــدا

وفي قطعة أخرى يقول:

وقائلة أهلكت بالجود مالـنا ونفسك حتى ضـر نفسك جودها(2)

فقلت دعيني إنمـا عادتـــي لكل كريم عادة يستعـيدهـــا

وهكذا تتضح فلسفة حاتم في الدفاع عن صفة الكرم ومن خلال الصراع الذي ينشأ بينه وبين المرأة اللائمة ويظهر هنا الموقع الفكري مهما في عملية الاختيار والتوليد المنهجي للقصيدة أو القطعة وأنت من خلال هذه القطع ترى أن العلاقة بين الفن والمجتمع متبادلة كما يقول (هاري لفن) فالأدب ليس مجرد معلول لعلة اجتماعية بل إنه العلة لمعلولات اجتماعية.

ونجد شاعراً آخر يمسك بطرف ثان من الموضوع (اللوم) ليعبر عن صفة أخرى لازمت هذا الشاعر تكشف لنا فلسفة حياته وهذه الصفة هي (الغزو وحب الأسفار والمغامرة) والشاعر هو عروة بن الورد، فهذه الصفة وجدت عند الشاعر استجابة وعرف بها كانت تعيش في حسه بصورتها المجسدة.

وأصبحت لا تفارقه واستطاع بها أن ينتزع الاعجاب من أصحابه ولهذا لمس المجد بهذه الصفة وقد أهلته قدراته وبراعته إلى تحقيق رغبته حتى كان تجريده للموضوع تجريدا واعيا. وقد اختار له المرأة اللائمة على هذا السلوك وهو في فلسفته هذه يوضح أبعاد الفكرة الثابتة في نفسه ويحدد خطوطها الواضحة فالمرأة تلومه على الغزو وتحول بينه وبين المخاطر التي توصله إلى غايته وينتهي في قصيدته أو مقطوعته عادة بما يرد اللوم ويذهب عتابها ويفند حججها ويحرص على استخدام العبارة (اقلي عليّ اللوم) ويطلب منها أن تتركه.

اقلي علي اللوم يـا بنت منذر ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري(6)

ذريني ونفسي أم حسان إنني بها قبل أن لا أملك البيع مشتـــري

أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صيّـــــر

(اللهم – المرأة اللائمة – النوم الليل – المال، رفض اللوم، حجج الرفض – سيرة وفلسفة جزء من شخصيته) نلاحظ كل هذا في هذه القطعة

ويستمر عروة بن الورد في هذا النهج الذي يستعمل المرأة في الحديث ويتخذ منها ذاتا تسأل الشاعر عن طريقته في الحياة وفي هذه الصيغ يجد الشاعر طريقة لبسط فلسفته والكشف عن حقيقة سلوكه فيكون شعره صورة لحياته وهو يريد تسجيل مغامرة تميز بها عند أبناء عصره.

أراد حاتم تربية الوعي الإنساني وقيادته وتعميق هذا الوعي لأنه كان يطمح إلى سيادة القبيلة بكفاحه ضد الواقع الاجتماعي ذي الفوارق الطبقية.

ويبدو حاتما أكرم العرب لأنه عاش البذل في وجوده عطاءا وكرما وتضحية وأدرك أن الخلود والمجد لا يكون إلا بالعطاء والتضحية.

مهلا نوار أقلي اللوم والعـــذل ولا تقولي لشيء فات ما فعـــلا(3)

ولا تقولي لمال كنت مهلكـــه وإن كنت أعطي الجن والخبـــلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سبـــلا

إن البخيل إذا مات يتبعـــه سوء الثناء ويحوى الوارث الإبلا

فاصدق حديثك إن المرء يتبعه ما كان يبنى إذا نعشه حمـــلا

ويقول في قطعة أخرى:

وعاذليتن هبتا بعد هـجعـة تلومان متلافـا مفيدا ملومـــــا(4)

تلومان لما غوّرا النجم ضلة فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما

فقلت وطال العتاب عليهمـا ولـو عذراني إن تبينـا وتصرمـــا

ألا لا تلوماني على ما تقدما كفى بصروف الدهر للمرء محكما

فإنكما لا مضى تدركانه ولست على ما فاتني متندما

والمال الذي يتصرف فيه لا يحقق الذكر الحميد إلا إذا أطعم وافدا وأشبع جائعا وفك عانيا وأسيرا وقد آمن بهذه الأفكار فلم يزجره عنها جبروت الجوع ولا شبح الموت.

ويقول لزوجته:

إذا صنعت الزاد فالتمسي له أكيلا فإني لست آكله وحدي(5)

أخا طارقا أو جارا بيت فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما فيّ إلا تلك من شيم العبد

فهو يعبر عن تجربة أصيلة في الكرم ورأي في المال وليد ممارسة حقيقية واقعية، يذكر أنه جرب الفقر وجرب الغنى فلم يزهو للغنى ولم يقهر بالفقر.

فهو يشعر بأن الغنى مسؤولية خلقية واجتماعية، فقربه كرمه من الفقر والفقراء فآلفوه وكثروا حوله على عكس البخيل الذي لا يعرف غير نفسه، يدخر المال ويجمع مدّعيا ضمان حياة رغدة لأسرته من بعده.

وعروة ابن الورد أبو الصعاليك يسمي صعاليكه (عياله) يروى أنه كان يجمع المرضى والضعفاء والفقراء حين تتخلى عنهم قبائلهم ويغزو بمن يقوى منهم على الغزو، ويقسم الغنائم بينهم حتى إذا استردوا قواهم وجمعوا بعض المال ردهم إلى قبائلهم وعشائرهم، فتراه ثائرا مع نظائره من هذه الطبقة لمحاربة الفقر بالغزو وافتكاك المال والثروة من الأغنياء وإعادة توزيعها، يقول:

وسائلة: أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه(7)

مذاهبه أن الفجاج عريضـــــــة إذ ضن عنه بالفعال أقاربـــــــه

فلا أترك إلا خوان ما عشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربـــــــه

وأصبحت خصلة الكرم والشجاعة والغزو جزءا من حياته تمثل التضحية والمخاطرة في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية.

ووضوح التفكير عند عروة بن الورد جعل شعره في الفقر واضحا، فهو يرى أن الفقر منزلة اجتماعية متدنية فالغني يحظى باحترام الناس وإعجابهم رغم عيوبه وأخطائه وضعة نسبه، والفقير يلقى الاستهزاء والاستهانة به وبأسرته ويعده المجتمع في أدنى مراتب الشرف ولا يضعون له وزنا ولو كان عاقلا فاضلا، والفقر في رأيه يتسبب في جفاء الأقارب وكرههم لقريبهم الفقير.

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقيـر(8)

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخيـر

ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحـبه يطيـــر

قليل ذنبه والذنب جـــم لكن للغـنى رب غـفـــــور

ويقول:

المال فيه تجلة ومهابـــة والفقر فيه مذلة وفضـوح

ويقول:

فالموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدب عقاربه

ولهذا نهض عروة لرد الاعتبار للفقير وهو يرى ذلك سبيلا إلى المجد والخلود، والنفس عنده لا تخلد إلا إذا كانت قادرة على البذل والمخاطرة وإلا ماتت دون أن تترك ذكرا حميدا.

أرى أم حسان الغداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف(9)

تقول سليمي لو أقمت لسرّنا ولم تدر أني للمقام أطوف

لعل الذي خوفتنا من أمامنا يصادفه في أهله المتخلف

والمنية في نظره لا تكون محمودة إلا إذا كانت محفوفة بالمخاطر.

وأهم صورة عرض فيها الشاعر أفكاره هي صورة الجدل الذي يدور بينه وبين امرأة هي على الأرجح زوجته تعبر عن خوفها وجزعها من مخاطرة الشاعر بنفسه في غزواته التي لا تنقطع من أجل مال لا يحتفظ به وهو يرد عليها بأنه لا يستطيع رد محتاج أو يقف موقفا سلبيا من الفقر وهذا الموقف فيه واقعية كبيرة:

أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

والشاعر يفيد في قصائده من الحوار في توضيح رأيه والاحتجاج له في وجه الاعتراضات التي تثور في نفسه أو التي يثيرها الآخرون.

ولم يكن حاتم وعروة وحدهما في هذا النهج الحواري المفعتل فهناك أبو دؤاد الايادي تشكوه زوجته (أم حَبْتَرٍ) لتبديد ثلاثين ناقة وتزعم أنه أفسد المال: يقول:

في ثلاثين زعزعتها حقوق أصبحت أم حبتر تشكوني

وكذلك لبيد يقف موقفا مشابها لموقف حاتم

أعاذل قومي فاعذلي الآن أو ذري فلست وإن قصرت عني بمقتصر

اقي العرض بالمال التلاد واشترى به الحمد ان الطالب الحمد مشتري

ومثل لبيد يصنع طرفه والمرقش الأصغر والمخبل السعدي وكعب بن سعد وسهم بن حنظلة وغيرهم.

ولم يقتصر اللوم على الغزو أو الانفاق وإنما تعداه إلى مسائل أخرى أخذت طابع المعاتبة فامرأة أوس تعاتبه على شرب الخمرة وزهير تلومه المرأة في الوجد وامرئ القيس يلام على طربه وغزله، ويتعدى اللوم هذه المواضيع إلى مواضيع أخرى تخص الاخفاق في الحرب إلى غير ذلك من المواضيع التي تساعد الشاعر على شرح سلوكه وفلسفته.

نلاحظ أن الشعراء استخدموا وسيلة موحدة في الصياغة باستخدام كلمة عاذلة، عاذلتين، قائلة، سائلة، - مهلا نوار - اقلي اللوم ذريني - دعيني - الم تعلمي - ويختار بعض الشعراء الليل وقتا للوم المرأة.

وقد تكون اللائمة هي الزوجة أو الخليلة أو الأم (المرأة المرأتان) ونلاحظ أن اقتصار اللوم على المرأة، يحدد قيمتها في المجتمع الجاهلي في توجيه السلوك للرجل ومشاركتها في تحديد المسؤولية التي اضطلع بها فهذه الدراسة تكشف عن الجو الاجتماعي والثقافي في المجتمع الجاهلي وعلاقة الأديب به وربط الفن بالقيم الاجتماعية الذي هو أمر طبيعي وجوهري في الحركة الواقعية وتحليل هذه النصوص وابراز الخاصية الجمالية تبين فضاء النص زمانيا ومكانيا وفكريا.

ويمكن أن نلاحظ أن الملامح الواقعية التي رصدناها في هذه الدراسة يمكن أن تدرس من خلال المنهج الاجتماعي، ويمكن أن نجد بعض عناصره في هذا الموروث الشعري في صلته بالواقع الاجتماعي والتاريخي والنفسي وبثورته على مستجدات الحياة كذلك في الاحساس بوجود الآخر.

وأخيرا يمكن أن نقول أن هذه الدراسة تكشف عن الجو الاجتماعي والثقافي في المجتمع الجاهلي وعلاقة الشاعر به وربط شعره بالقيم الاجتماعية الذي هو أمر طبيعي وجوهري في الحركة الواقعية رغم أن العصر لم يكن خاضعا للايديولوجيات.

الهوامش:

(1) – ديوان حاتم، ص 40.

(2) – ديوان حاتم، ص 44.

(3) – ديوان حاتم، ص 73.

(4) – ديوان حاتم، ص 80.

(5) – ديوان حاتم، ص 44-43.

(6) – ديوان عروة بن الورد، ص 35.

(7) – ديوان عروة بن الورد، ص 19.

(8) – ديوان عروة بن الورد، ص 45.

(9) – ديوان عروة بن الورد، ص 51.